الشيخ عبد الكريم الفكونالقسنطيني وإنتاجه الفكري

(988-1073هـ/1580-1663م)

الأستاذ بوخلوةحسين، جامعة تيارت/ طالب دكتوراه جامعة وهران 1

إشراف: الأستاذ الدكتور الحمدي أحمد، جامعة أدرار

ملخص البحث:

يتناول البحث دراسة لجوانب مختصرة لحياة الشيخ عبد الكريم الفكونالقسنطيني المولود سنة 988هـ/1588م والمتوفي سنة 1073هـ/1663م .كان عبد الكريم صوفيا عالما عاملا اعتمد على نفسه وعائلته في تكوين نفسه ونبوغه في مختلف العلوم الدينية ولعل ما يثير الانتباه علاقاته الحسنة مع كثير من العلماء المعروفين منهم أبي سالم العياشي وعيسى الثعالبي وأحمد المقري ومفتي الجزائر سعيد قدورة وغيرهم،اهتم الفكون بالتدريس حيث تخرج عليه الكثير من المشايخ المشهورين والمغمورين أيضا كما اهتم بالتأليف في العلوم الدينية وعلوم اللغة، كما يلاحظ على الفكون اهتمامه بقضايا عصره خاصة الجانب الاجتماعي.

الكلمات المفتاحية:منشورالهداية، قسنطينة، محددالسنان، فتح الهادي في شرح المجرادي، ركبالحج، محمدالفكون،انحرافات التصوف.

The brief :

thisresearch deals with a briefstudy of a chortbiography of the scholar cheikh abedelkrimalfakounewhowasbornin 1588 [988 higris] in constantine and whodiedin 1663 [1073 higris] .

This researchtalksalso about hisintellectual publications about arabiclanguage and islamic sciences.

Elfakounwasinterestedalso in teaching as a resultmanyfamous and brilliantscholarsweregraduted and weretought by elfakoun.

تمهيد:

شهدت الحياة الفكرية في الجزائر خلال العهد العثماني رواجا ونشاطا كبيرين في مختلف أنحاء البلد وذلك لما تمتعت به من حالة الهدوء والاستقرار السياسي والاجتماعيوالاقتصادي، وتشجيع الحكام للحركة الفكرية وعدم محاربتها أو محاولة إعاقتها. فأصبح الجزائري لا يعاني من الأمية مثل ما كان يعاني منه الأوروبي مثلا.

تميزت السياسة العثمانية التعليمية بإعطاء هامش كبير من الحرية للجزائريين فبنو المدارس وأسسوا الزوايا وجالوا في الأنحاء، داخل البلد وخارجها يتعلمون ويعلمون، وقد اهتم السلاطين بالناحية الفكرية فقربوا العلماء ومنحوهم مختلف المزايا وشجعوهم على التأليف فظهرت أسماء من العيار الثقيل ساهمت في ديناميكية الحركة الفكرية في الجزائر.ومن هؤلاء الشيخ العلامة الفقيه عبد الكريم ين محمد بن عبد الكريم القسنطيني.الذي اشتهرت ترجمته في المصادر خاصة ببلاد المغرب الإسلامي ونعتقد أن ذالك راجع لمكانته العلمية وهذا البحث يسلط الضوء عل هذا العلم وجهوده الفكرية.

***/التعريف بالشيخ عبد الكريمالفكون:**

1**–نشأته:**هو عبد الكريم بن محمد بن عبد الكريم بن يحي الفكون التميمي من قبائل تميم العربية ولد عام 988هـ/1580م بقسنطينة وهو اليوم الذي مات فيه جده عبد الكريم أما والده فهو أبو عبد الله محمد خطيب الجامع الأعظم كان فقيها صوفيا توفي بعد رجوعه من الحج في أواخر محرم عام 1045هـ في قرية المويلح بمصر.[1]

وأما أمه فهي عربية وزيادة على ذالك فهي شريفة النسب فقد ذكر الفكون في منشور الهداية فتنة وقعت بقسنطينة وذكر أن جده لأمه، وكان مزوار الشرفاء إذ ذاك، وقد ذكر أن اسمه أبي عبد الله محمد قاسم الشريف وعده من الذين تعاطوا المنصب الشرعي لادعائهم العلم.[2]

ولم يذكر لنا الفكون إلا القليل النادر حولحياته الشخصية، رغم ذالكفقد ترجم له كثير من المؤرخين منهم أبي سالم العياشي المتوفي سنة 1090هـ /1679م حيث يقول: ومن لقيته بطرابلس الشيخ الفقيه المشارك سيدي محمد بن العلامة الفهامة الناسك الخاشع الجامع بين علمي الظاهر والباطن سيدي عبد الكريم بم محمد بن عبد الكريم الفكونالقسنطيني وكانت وفاته رضي الله عنه عشية الخميس السابع والعشرين من ذي الحجة سنة 1073هـ، شهيدا بالطاعون الذي حل بقسنطينة وكانت لنا به رضي الله عنه وصلة وانتساب بالخدمة والولاء والاعتقاد الصالح لما حججت معه سنة 1064هـ .وقد قال رضي الله عنه لما طلبت منه الاتصال بحضرته والانخراط في سلك أهل خدمته، إني أقول لك كما قال الشاذلي، لك ما لنا من الخدمة وعليك ما علينا من الرحمة، وكان رحمه الله في غاية الانقباض والانزواء عن الخلق ومجانبة علوم أهل الرسوم بعدما كان إماما في ذالك يقتدى به، حيث تركها وكان يقول:قرأناها لله وتركناها لله.[3]

2-ثقافته:

العوامل المؤثرة في ثقافة الفكون: نشأ الشيخ الفكون في حضن والده بعدما توفي جده كما أسلفنا وقد بدأرحلة طلب العلم بحفظ القرآن الكريم الذي كان قاعدة التعلم في المغرب الإسلامي في هذه الفترة، وقد ذكر الفكون عند حديثه عن أبي العباس أحمد بن ثلجون أنه قرأ عن خاله أبي القاسم بن عيسى الملقب بثلجون وهو من قبائل زواوة4وغير ذالك يبدوا أن الفكون قد نشأة نشأة عصامية في تعليمه منذ صغره فلا نعلم أنه ذهب إلى أي وجهة لطلب العلم غير قسنطينة، ذلك أنه في عهده قلت الرحلات العلمية بين مدينتي قسنطينة وتونس وتوطد الانفصال السياسي بينهما وتقلصت إلى حد كبير المبادلات التجارية والزيارات وغيرها، ولا نعلم أن الفكون رحل إلى الشرق طلبا للعلم في صغره، أما في كبره فقد كان يتوجه إلى المشرق أميرا لركب الحاج لا كطالب، ورغم أننا نجده يفكر في الهجرة إلى الحجاز وهو يافع، إذ كان متبرما من أحوال بلده وأهلها ولكنه عدل عن ذلك ورضي بالإقامة في وطنه مستندا إلى حديث شريف جعله يعتقد أن أهون الشر هو عدم الهجرة إذ قد يكون البلد الذي يهاجر إليه أكثر سوءا من البلد الذي هاجر منه.[5]

أ–وجود العلماء: رغم تبرم الفكون من عصره ونعيه العلم والعلماء إلا أن الحياة العلمية كانت موجودة فقد ذكر الفكون مجموعة من العلماء قريبي العهد من الفترة التي عاش فيها، منهم الشيخ أبي حفص عمر الوزان والذي بدأ الفكون بذكر ترجمته في كتابه منشور الهداية وقد وصفه بأنه شيخ الزمان وياقوتة العصر والأوان العالم العارف بالله الرباني توفي عام 965هـ.[6]

وقد ذكر الفكون في مؤلفه علماء آخرين منهم محمد الكماد ومحمد العطار وأحمد الغربي وجده ووالد جده عبد الكريم ويحي، وعمه قاسم الفكون، وعبد اللطيف المسبح وحميدة بن باديس ومحمد التواتي وغيرهم من المشايخ الذين أسهموا في الحياة العلمية سواء بالتأليف أو التدريس.[7]

ب– وجود المصادر العلمية: لقد كانت الكتب مصدرا من مصادر التعليم فعند مطالعتنا للفتاوى والنوازل ومختلف القضايا الفقهية فإننا نجد أسماء كثيرة من التآليف في العلوم الشرعية خاصة علم الفقه المالكي، منها كتاب المدونة لسحنون والحاوي في الفتاوي للبرزلي، ومختصر خليل ومختصر ابن الحاجب في الفقه والدرر المكنونة في نوازل مازونة ورسالة ابن أبي زيد القيرواني وعقائد السنوسي وكتاب الشفء للقاضي عيض ودلائل الخيرات لمحمد بن سليمان الجزولي وكتاب التوضيح لخليل، وحلية الأولياء لأبي نعيم الأصفهاني والحكم العطائية لابن عطاء الله السكندري، والقدسية للأخضري، والمدخل لابن الحاج، وتأسيس القواعد والأصول لزروق وفتاوىالعقباني ومعيارالونشريسيوغيرها.[8]

ج –شيوخه: قرأالفكون على الشيخ التواتي، المرادي سنة 1031هـ مرارا وشرح ألفية بن مالك وعقائد السنوسي بشروحها، وابن الحاجب بمطالعة التوضيح عليه والتذكرة للقرطبي وكتاب مسلم بن الحجاج بمطالعة الأبي كما قرأعليه مباحث في الإعراب للسيوطي.[9]

قرأ أيضا بعض مسائل الإسطرلاب وبعض من الفرائض على محمد الفاسي الذي قدم من فاس ونزل بمدرسة الفكون وذكر أنه ناقشه فرأى منه قصورا سوى ضوابط معه فقد فتح عليه السنوسي شارح "زمام الرائد في علم الفرائض" للحوفي فلم يجد لهذا الشيخ معرفة في معاني الألفاظ ولا بالصناعة

الكسورية فأطبق الكتاب لما تيقن من عجزه وطالعه وحده ففتح الله في عمل الفريضة بالطريقة الكسرية.[10]

كما قرأعلى الشيخ أبو الربيع سليمان بن أحمد القشي من بلدة نقاوس وقد انتقل سليمان إلى قسنطينة حيث درس على الفكون الجد ثم قصد الحجاز لكنه توقف في مصر حيث قرأ على عالمها سالم السنهوري المختصر والرسالة وألفية العراقي ثم رجع إلى قسنطينة حيث قرأ عليه الفكون شرح صغرى السنوسي وقطر الندى والأجرومية بشرح جبريل وبعض أوائل الألفية[11]كما قرأ على أبو عبد الله محمد بن راشد الزواوي الذي ذكرناه سابقا وقرأعلى أبي فارس النفاتي،الذي قرأ بتونس على الشيخ الشريف النجار.[12]

هذه هي العوامل التي صاغت شخصية الفكون العلمية وكان لا بد أن يبلغ العلم الذي حازه،خاصة وهو يرى أن الجهل قد انتشر وأن أدعياء العلم كثر، وأن العلماء العاملين قد قلوا وخفتت أصواتهم وقد قرر الفكون هذه الحالة خاصة في كتابه "محمد السنان في نحور إخوان الدخان".

د–تلاميذه:

مارس الفكون التدريس في مسجد المدينة وزاوية آل الفكون التي كانت من بين الزوايا التي تستقبل طلبة العلم فالزاوية بها إقامة للطلبة وقد استقر بها محمد بن راشد الزواوي وربما استقبل الشيخ ببيته سواء بغرض الزيارة أو طلب العلم.[13]

ولم يكن الفكون يأخذ أجرا على التعليم بل كان هو الذي يتكفل بالنفقة على طلبة العلم فقد ذكر ثلاث من طلبة العلم منهم اثنان من جبل زواوة،فقال:وقصدبذلك صاحبنا أبو العباس تخفيف المؤونة على عامله الله بالحسنى،فأجريت لهم ثلاثتهم المؤونة.[14]

وقد تخرج على يد الفكون من العلماء الكبار لعل من أشهرهم أبي مهدي عيسى الثعالبي من موطنةالثعالبة توفي عام 1080هـ تلقى العلم بمسقط رأسه ثم رحل إلى الجزائر وقد تتلمذ على سعيد قدورة وعلى عبد الواحد الأنصاري السجلماس[15]لكن بعض الأحداث أهمها وفاة الشيخ الّأنصاري

بالطاعون عام 1057هـ وثورة ابن الصخري في الشرق الجزائري والثورة ضد الباشا يوسف الذي كان مقربا للثعالبي التي انتهت برمي الباشا في السجن، جعل الثعالبي خائفا على نفسه فتوجه إلى قسنطينة وإن لم يطل مقامه بها لعدم استقرارها ولا شك أنه قد اتصل بها بالشيخ عبد الكريم الفكون وروى عنه الحديث ونحوه ولكنه لم يلبث أن غادر قسنطينة وقد ظل منتقلا بين قسنطينة وزواوة وبسكرة إلى أن غادر الجزائر سنة 1061هـ قاصدا الحج.[16]

أبي سالم العياشي: لم يذكر العياشي ما قرأه عليه وإن كان قد لخص أهم ما أطلع عليه من مؤلفات الفكون، منها "محدد السنان في نحور إخوان الدخان" والديوان في مدح النبي صلى الله عليه وسلم، وذكر أنه قرأ عليه بعض كتاب الموطأ لمالك، والصحيحين والسنن الأربعة وطرفا من الأحكام الصغرى لعبد الحق الإشبيلي والشفاء للقاضي عياض وبعض من رباعيات ابن أبي عوانة ومن نظم أصول السلمي لزروق وغنيمة الوافد لعبد الرحمن الثعالبي كما أخذ منه التصوف حيث قال :كانت لنا به رضي الله عنه وصلة وانتساب بالخدمة والولاء والاعتقاد الصالح لما حججت معه سنة 1064هـ، إذ قال لي رضي الله عنه لما طلبت منه الاتصال بحضرته والانخراط في سلك أهل خدمته، أقول لك كما قال الشاذلي، لك ما لنا من الخدمة وعليك ما علينا من الرحمة.[17]

كما قرأ عليه يحي الشاوي من أهل مليانة وقد أجازه الفكون وغيره من فطاحل علماء العصر[18]. ومنهم بركات بن باديس القسنطيني، حيث ذكر أستاذه الفكون في تقييده"نزع الجلباب "كما ذكر له جواب عن لغز السيوطي في إحدى مسائل النحو[19]ومنهمّ أبي عبد الله محمد البوزيدي،سأله عن بعض مسائل الفقه فكان يقيد له أجوبتها.[20]

ومنهم الشيخ مخلوف قرأعليه النحو ثم ترك العلم وراح يأخذ ويشتغل بالتصوف العملي.ومنهم محمد الهاروني أصله من زاوية أولاد هارون بمتيجة وطن من عمالة الجزائر،قدم إلى قسنطينة عام 1022هـ،حيث وجدالفكون في حال بناء داره الجديدة. ومنهم أبو عبد الله البهلولي وأبو القاسم بن يحي من جبل زواوةقرا المرادي على الألفية ففتح الله في تلك القراءة بأبحاث ووارد أفكار ما أعجب الجميع نظرا واستدلالا، فلما حصل الختم في التأليف طلبوا القراءة في غيره فمنعهم الشيخ من ذألك.وحدث عن أبي عبد الله انه أصبح له أتباع وتلامذة وحق له ذالك، لمل له من قوة

الفطنة وقبول البحث وواسع العارضة وفصاحة اللسان. ومنهم عاشور القسنطيني، كان يحضر الإقراء على الألفية وربما يسأل المرة فكان الشيخ لا يرد له الجواب لبلادته، فكان دائما يستشكل المسائل نحوا وفقها وكلاما يأتي إلى الشيخ به مرة ببطاقة ومرة بالكتاب نفسه، ومرة مشافهة وقد رحل إلى تونس.[21]

أبو عمران موسى الفكيرينوالد السابق أقرأ على التواتي وبد وفاته انتقل هو وجمع من الطلبة للقراءة على الفكون فدرس عليه المرادي في النحو ثم انقطع عنه لخلاف بينهما [22]

علي بن عثمان الشريف من قبيلة بني تبرون بزواوة،وجده مريضا مرضا أعيى الأطباء عام 1028هـ فلازمه وقرأ عليه المكودي والمرادي فاصرف من عنده وهو نجيب في العربية بعدما كانت ملكته ضعيفة فيها فأجازه،وبلغه أنه أصبح صاحب درس عظيم وغنى، وكان يطعم الطلبة من عنده.[23]

أحمد بن سيدي عمار خطيب الجامع الأعظم بالجزائر قرأعلى الشيخ بعد وفاة الشيخ التواتي، ومنهم أيضا أحمد بن ثلجون، كان فطنا لبيبا أريبا ذا عقل وزي حسن رجع رجوع حسنا في شيبته،قرأ على الشيخ ابن الحاجب وعلم الكلام،والرسالة والمرادي وغيره، وصحيح البخاري، وكان مجالسا مؤانسا نعم الجليس ونعم الأنيس مع رزانة وعدم طيش طلق اللسان فصيح الكلام ذا خط حسن ورونق وبهاء،كان يؤانسه في أيام مرضه ويحادثه ليخفف عنه مرضه ويصاحبه إلى المسجد الأعظم وقد توفي بالطاعون عام 1031هـ.[24]

محمد البوقلمامي، كان ذا عقل جيد وفكر رصين بطيء الفهم ثقة فيما يفهمه صالح الحال، يحب الطلبة ويواسيهم بماله كان ملازما للقراءة على الشيخ جاد لا يعرف الهزل، ناطق بالحق توفي جاء الطاعون المذكور، ومنهم أيضا أبو عبد الله محمد بن باديس،كان يقرأ على الشيخ التواتي وبعد ارتحاله استقر للقراءة على الفكون وهو من موثقي البلدة ممن يشار إليه .[25]محمد الفكيرين أخوا عاشور الفكيرين،كان صغيرا مجتهدا.[26]

علي بن داود الصنهاجي، تقلد منصب الفتوى بقسنطينة، قرأ على سالم السنهوري ويذكر أنه أجازه، وقرأ على الفكونتآليف في النحو كقطر الندى ونحوه.[27]

أحمد الميلي: وهو ممن تعاطى خطة الشهادة،قرأ على التواتيوالفكون الجد ومحمد بن الحسن كان إذا رأيته حسبته فطنا وإذا باحثته تجده بليدا، يحفظ مسائل غراب ومشكلات صعاب ليقطع بها من يريد معارضته حتى سماه التواتي "كبيش النطاح" درس على الفكون المرادي وربما ساعده في حلإشكالات تطرح عليه أثناء قراءته كتب الحديث.[28]

هذا فيما يتعلق بالتعريفبالفكون وتعليمه ونشاطه التعليمي في مدينة قسنطينة إذ يتبين لنا أنه كان عالما نشيطا متمكنا ساهم في نشر العلم في موطنه وغيره. وننتقل للحديث على الإنتاج الفكري للفكون.

/الإنتاج الفكري للفكون:

على الرغم من أن مؤلفاته كانت قليلة إلا أنها كانت ذات أهمية قصوى في إعطاء معلومات إضافية حول مختلف جوانب الحياة في قسنطينة خلال العهد العثماني ومنتآليفه نذكر:

أولا– في النحو واللغة:برع الفكون في علوم النحو واللغة، ويذكر سبب تعلقه بالنحو إذ يقول أنه رأى جدّه في المنام مرتين أو أكثر، وفي إحداها رأى أنه بالمدرسة التي دفن فيها ذاهبا إلى الصلاة فيها، وكأن الجد يخاطبه من قبره قائلا اقرأ، وناوله قرطاسا مكتوبا فيه بالأصفر قال فعل ماضي، فاشتعل الفكون بعلم النحو وحصل له فيه ملكه.[29] وقد وقعت قصة بين الفكون ومحمد بن راشد الزواوي والشيخ التواتي والشيخ الفلاري التونسي وتحدّيه للفكون في اللغة حيث كان ذلك منطلق نبوغ الفكون في اللغة والنحو[30] .وقد ترك لنا الفكونتآليف عديدة في هذا الفن منها:

أ – شرح على أرجوزة المكودي في التصريف: وهو مجلد أجاد فيه غاية الإجادة وأحسن كل الإحسان وأعطى النقل والبحث فيه حقهما ولم يهمل شيئا مما يقتضيه لفض المشروح ومعناه إلا تكلم عليه وأجاد كما هو شأنه في تأليف، وأوله: " الحمد لله الذي أجرى تصاريف المقادير بواسطة أمثلة الأفعال، وأوضح بيان افتقارها إليه، بتغير حالاتها من حركة وصحة واعتلال ونزع إشكال عين وجودها إلى ضم الإنضمام إليه، وكسر الانكسار لديه، وفتح الانفتاح في مشاهدة العظيمة والجلال. يقول العياشي: ولا يخفى عليك ما اشتمل عليه هذا المطلع من براعة الافتتاح ولطيف الإشارة إلى أنواع الإعراب والتصريف وحد فرع من تأليفه أوائل صفر من عام ثمانية وأربعين وألف

وشرحه هذا نقلا وأوسع بحثا وأتم تحريرا من شرح العلامة أبي عبد الله الدلائي ولا أدري أيهما سبق شرحه.[31]

ب –فتح الهادي في شرح المجرادي: انتهى المؤلف من تأليف يوم السبت الثاني والعشرين من ذي القعدة عام 1038 هـ وقد ذكر الفكون في آخر المخطوط أنه يعد النظر في مسودتها، وقد بدأ التأليف في شهر شوال من نفس السنة، وذكر أنه ربما ترك الاشتغال به أحيانا كل ساعات اليوم ربما لمرضه.[32]وهذه هي فاتحة الكتاب، بعد الثناء على الله بما هو أهل والصلاة على النبي والأصحاب يقول :" أما بعد فقد طلب مني بعض الأحباء في الله المتنعمين إليه الراغبين في إبداء العلم نشره للمسلمين أن اضع له تقييدا على نظم ابن عبد الله المجرادي الذي وضعه في بيان الجمل وحكمها مجتنبا فيه التطويل وعويص البحث إلا مما لاح، مما ليس فيه جناح، يوضع عبارته ويبدي رمزه وإشارته مقتصرا فيه على الإيضاح والإفصاح تقريبا للمبتدي للمنتهي وتذكرة للمنتهي فلم أجد إلا مساعفته، وإن كنت في شغل بال وعدم ملائمة الحال للمقال وأخذي في أهبة السفر أشرف لمن تشد إليه الرجال، فأسعفه رجاء بركة نبته وإخلاص طويته واغتناما في الدعاء الصالح في خلوته وجلوته ورجاء من المولى الإجابة على إبداء العلم وتدوينه وأنينفع به في القبر والمحشر وهوله وتنكيده وأن ينفعني به وأن يجعله شافعا نافعا، ولكل هم في الدارين دافعا وهو حسبي ونعم الوكيل وسميت هذه العجالة " فتح الهادي في شرح المجرادي" [33].

ج – تآليف أخرى: كما ألّف الفكونتآليف أخرى منها:

1–شرح شواهد الشريف على الأجرومية: حيث التزم بذكر عقب كل شاهد حديث مناسب من أحاديث النبي –صلى الله عليه وسلم –وهو " فتح المولى في شرح شواهد الشريف بن يعلى"، فرغ منه عام 1027 هـ، كما ألف كتابا آخر أسماه "شرح مخارج الحروف من الشاطبية".[34]

ثانيا: في العلوم الدينية

أ – " منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية":

يعتبر هذا التأليف من أهم تآليف الشيخ عبد الكريم لأنه يعطيناصورة عن الحالة التي كانت تعيشها قسنطينة خلال فترة هامة من تاريخها وهي الفترة العثمانية من كل النواحي السياسية والاجتماعية والثقافية. ومن عدة دلائل نعرف أن الفكون قد ألف منشور الهداية على فترات في شكل مذكرات ومهما كان الأمر فإنه قد انتهى منه بعد سنة1045 هـ / 1635 م وهي السنة التي توفي فيها والده بالمويلح أثناء منصرفه من الحج، ثم أنه ألف كتابا في علم الصرف هو " فتح اللطيف" سنة 1048هـ وذكر فيه أنه ألف منشور الهداية،وأن هذا الكتاب قد جلب غليه نقمة البعض ورمقته العيون بالبغض من أجله ومن هذين التاريخين نعرف أن الفكون انتهى من هذا الكتاب بين 1045 – 1048 هـ[35]

ويبدو أن الفكون أخذ في تسجيل مذكراته خلال العشرينات من القرن الحدي عشر الهجري والدليل على ذلك أنه أرّخ لمرض خطير حل به وألزمه الفراش سنة 1025 هـ (1616م) وقد دام معه المرض ثلاث سنوات وبدأ يخف عنه خلال سنة 1029/1028هـ و أشار إلى زيارة المولى علي إلى قسنطينة قادما من السلطة الأحمدية وقد تولى السلطان أحمد العثماني بين (1013 – 4027 هـ) (1604 / 1617م) فتكون الزيارة المذكرة قد تمت خلال هذه الفترة، ثم إن الفكون استعار من مراسلته مع أحمد المقري أبياتا ضمنها منشور الهداية، والمراسلة وقعت في عام 1038 هـ والمعروف أن المقري توفي عام 1041هـ[36] .

والفكون يسمي تأليف أحيانا تأليف وأحيانا تقييدا ديوانا والنا الذين تعرض لهم يسمى حياتهم تارة ترجمة وتارة فهرسةوتارة سيرة، ثم إنه كان يلتزم طريقة معينة في تراجمه فبالإضافة إلى الاستطراد فإنه كان يطيل ترجمة البعض حتى تتجاوز الترجمة الواحدة عدة صفحات وأحيانا يكتفي ببضعة أسطر في الورقة الواحدة، وقد يناقش قضية كلامية أو صوفية طارحا الأسئلة ومجيبا عندها دون أن يكون في ذلك علاقة بالترجمة التي يتناولها، وكثيرا من التراجم التي تعرض لها تشمل جيلين أو ثلاثة، فهو يذكر فلانا وبعد انقطاع بتراجم أخرى يذكر ابنه وبعد انقطاع آخر يذكر حفيده وهكذا الأمر بالنسبة لعائلات بأكملها منها عائلة الغربي، ابن باديس، ابن العطّار، بن نعمون فيعطي

صورة عن توارث العلم أو التصوف في الأسرة الواحدة وليس ذلك مقصورا على قسنطينة ولكن بالنسبة للأقاليم والأرياف الأخرى أيضا[37].

ولعل أبرز من ألّف على نسق الفكون ابن مريم التلمساني في كتابه "البستان في ذكر العلماء والأولياء بتلمسان" ومحمّد بن سليمان في كتابه "كعبة الطائفين" فالثلاثة ذكروا تراجم العلماء والفقهاء والأولياء. مع ملاحظة أن ابن مريم لم يترجم لمعاصريه، وأنه هو وبن سليمان راحا يغرقان في إثبات الكرامات إلى إن تصبح غير معقولة أحيانا عكس الفكون الذي ميّز بين الأولياء بحق وأدعياء الولاية.

ب – محدد السنان في نحور إخوان الدخان (مخطوط):

يعتبر محدد السنان في المرتبة الثانية من مؤلفات الفكون من حيث الأهمية وهو عبارة عن رسالة عالج فيها الشيخ مسألة التدخين التي يبدوا أنها كانت منتشرة في ذلك الزمان أو عمت بها البلوى وقد حكم الشيخ بتحريمها، والنسخة المخطوطة التي بين ايدينا نسخة منها ترجع الى احدىأسر حفدة الشيخ الفكون،وهي غير تلك الموجودة في الخزانة العامة بالرّباط لأن هذه النسخة نسخها حاج مغربي يسمى محمّد عبد الرحمن الحسني التادلي، أمّا النسخة التي بين أيدينا فقد كتب في آخرها أنّ نسخها تم يوم الثلاثاء ربيع الثاني عام 1323 هـ والذي نسخها هو الفكون الزواوي القسنطيني، أي أنها نسخة حديثة النسخ مقارنة بالنسخة الأصلية، والتي انتهى الفكون من كتابتها يوم الجمعة أواسط رجب عام 1025 هـ[38].

يتناول المؤلف في كتابه قضية التدخين التي عالجها كثير من الفقهاء، واختلفوا فيحكمها، فمن الذي أفتوا فيها أحمد المقري الذي توجد أجوبته في ذلك مجموعة مع أجوبة غيره وألّف فيها عبد القادر الراشدي[39]، وقد سمى الراشدي رسالته "تحفة الإخوان في تحريم الدخان" ومعلوم أن الراشدي القسنطيني توفي عام 1194هـ/ 1780م، أي أنه متأخر عن الفترة التي عاش فيها الفكون، لكنهااستمرار لها ما يعني أن مشكل التدخين قد استمر إلى هذه الفترة.[40]

يعطينا الفكون في محدد السنان وصف لجلسات التدخين حيث كان يجتمع الناس وفي وسطهم آلة التدخين يتداولون استنشاق دخانهاوأورد الفكون اسم النبتة المستخدمة في عملية التدخين

وهي جوزة الطيب، [41] وربما هي المعروفة عند المشارقة باسم الشيشة، كما وقد يضاف إليها أيضا الدخان المعروف بالنفة أو الشمة وكذلك دخان الورق. هذه الحشيشة قد يفهم من سلسلة التآليف التي سبق ذكرها والتي وُضعت لهذا الغرض أنّها تعود لأخريات القرن 10 هـ بداية 11 هـ ويحدد عبد القادر الراشدي وغيره من المؤلفين ظهورها في حدود السنة الخامسة بعد الألف الهجري، وهي أوراق شجر في بلد تنبكت (مـالي) حرسها الله، يسمى طبقا، ابتلى الله بها المسلمين.[42] ويظهر من بعض النصوص إن أول من تطرق إلى جواز تعاطيها هو الشيخ علي الأجهوري المالكي[43]، ورسالة الأجهوري هذه هي التـي أثارت حفيظة الشيخ الفكون لما رءاه من مباعدة الحق والشرع فألف كتابه " محدد السنان" لدحض أدلة الأجهوري.و قد ذُكِر محدد السنان من قِبل أبي سالم العياشي في رحلته " ماء الموائد" حيث قال :ومن تآليفه جزء في تحريم الدخان أسماه "محدد السنان في نحور إخوان الدخان" وهو في عدة كراريس مشتمل على أجوبة عدد من الأئمة وقد لخصنا بعضه حسب ضيق الوقت[44].

وأشار الفكونإلى أن مفتي مكة الشيخ خالد الزواوي،وشيخ المالكية بمصر إبراهيم اللقاني ذهبا إلى تحريم الدخان كما أشار إلى أوراق الأستاذ المغربي أبي عبد الله محمّد السوسي الذي جاء إلى الجزائر عام 1023 هـ وقد تكلّم عنه في مؤلفه " الدرر في شرح المختصر". أما السوسي فقد ذكر في أوراقه عن تحريم الدخان في رسالة أسماها " كشف الغسق عـن قلب دفق في التنبيه على تحريم دخان الورق"، كما استفتى أحمد سلطان مراكش، الشيخ أحمد بنحسون فأجاب بالتحريم وهي نفس فتوى أبي الغيث القشاش، وضمّنها ردود عـلى فتـوى الأجهوري السابقة، على أن السوسي رغم ذهابه إلى التحريم إلا أنه أسلوبه ركيك ورغم ذلك فقد عذر الفكون، السوسي لأنه جاء على فترة من العلم وكثرة الجاهلة وسوء الفهم ولا عـجب في ذلك والزمن هو القرن الحادي عشر وفي الحقيقة وجود مثله في هذا الزمن، وأحرى في هذه البلدة من البلدان حتى أن بعد موته رحمه الله حصل الأسف على فقده.[45]

ويذكر المؤلف الرحلة التي قام بها جماعة من العلماء إلى القسطنطينية عاصمـة العثمانيين وعلى رأس الجماعة مفتي الجزائر أبو الربيع سليمان الأوراري، حيث التقى بمفتي الديار العثمانية محمد

ابن سعد الدين، وقد أرسل المفتي من قِبَل جيش الجزائر لقضاء مآربهم وقد سأل الجماعة مفتي الديار العثمانية عن حكم تناول الدخان وقد أفتاهم بتحريمه[46].

ج/ديوان الفكون:

ارتبط ديوان الفكون بالحالة التي كان عليها الشيخ حيث يقول عن مرضه :" أعيى الأطباء دواؤه وتمكن من قلبي وأزمن وأنهكني وكل يوم يردُ علي نوع منه تظهر منه حالة الموت فلا ترى الأهل والأصاغر إلا في بكاء ونحيب، وآيس من القريب والبعيد ولم يبقى لهم حديث إلا في تجهيزي لدار الآخرة وما ينالهم بعدي وتأسفُ كلُ محب لله وبقي في عنفوانه وابتدائه سنة كاملة لا أكتحل بنوم ولو سِنَةُ، حتى ساعة سهو، والعرق يتفصد مني من الجبهة كمثل الديمة الهطلاء في اليوم الشديد البرد الكثير الثلج نازلاً ومستقراً ومهما تحرّكتُ أو التفت يرتعد طرفي الأيسر ويغشى علي في اليوم مرارا، وتلوّنِه وعدم ثبات مجيئه على صفة واحدة هو الذي أوجب تقييده في غير هذا. وبقيت به تلك السنة على ذلك الحال والسنة الثانية كلّها كانت السنةُ هي نومي فلا أراه لا ليلا ولا نهارا إلا ما ذَكرناهُ من السِنةِ هنيهة وأقوم فرعا من إحساسي بنفسي فاضت فكأنها بين عيني وأهواله أعظم من أن يصفها اللّسان، ولا أقدر على ذكر نزر من صفته إلى السنة الثالثة أُلهمْتُ مدح سيدنا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – تسليما فاتخذته قصائد في مدحه على حروف الهجاء متضمنا كل حرف من الحروف حروفا تقرأ من أوّل كل بيت في الحرف وتجمع فيخرج منها : اللهم اشفني بجاه محمّد آمين فربما وجدت الراحة في بعضه بجاه سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم [47] ونلاحظ أن العبارة الناتجة عن جمع حروف أول كل بيت غير صحيحة والصحيح ما أورده العياشي من أنه التزم بفعل مبدأ كل سطر حرفا من حروف العبارة التالية " إلهي بحق الممدوح اشفني آمين " وجملة ذلك خمسة وعشرون حرفا، ففي كل قصيدة مثلها أبيات.[48]

فرغ الفكون من تأليف ديوانه في الثالث والعشرين من جمادى الآخرة من 1031هـ، وقد بدأ المؤلف ديوانه بعد البسملة والصلاة على الرّسول – صلى الله عليه وسلم – بقوله : يقول كاتبه العبد الفقير إلى الله تعالى الراجي عفوه وغفرانه قال الله تعالى :" يوم تذهل فيه كل مرضعة عما أرضعت وترى الناس سكارى وما هم سكارى ولكن عذاب الله شديد"، المتمسك بحبل من مولاه

سبحانه عبد الكريم بن محمد الفكون أصلح الله حاله ووفقه لإتّباع سنة المصطفى أقواله وأفعاله الحمد لله مفرّج الكرب ومولى من فضله أعلى المراتب، والصلاة والسلام على أفصح العرب أما بعد فقد صادفتني يد الأكدار في هذه الدار، ورمتني بأسقام وأوصاب [49]ثم راح المؤلف يذكر أمر مرضه ومعاناته معه كما نقلناه عنه من كتابه منشور الهداية.

ثالثا، مؤلفات أخرى:

ألف الفكون كتبا أخرى لم تصل إلينا على الرغم من ذكرها في مختلف المصادر منها:

أ/ نظم الدرر في شرح المختصر (لعبد الرحمن الأخضري) ضمنه بعض الآراء التي لا أصل لها في الإسلام والتي جاء بها محمّد السوسي، وقد ذكر هذا المؤلف في منشور الهداية [50].

ب/ " سربال الردة فيمن جعل السبعين لرواة الإقراء عدة " ألّفها في واقعة لم يذكرها حدثت لأبي العباس حميدة بن حسين الغربي [51].

ج/ " سلاح الذليل في دفع الباغي المستطيل " افتتحها المؤلف بقوله:

بأسمائك اللهم أبدي توسلا فحقق رجائي يا إلهي تفضلا

وقد استنسخها المغاربة وصارت مشهورة بينهم [52].

د/ " شافية الأمراض فيمن التجأ إلى الله بلا اعتراض" أو سمّاه "العدة في عقب الفرج بعد الشدة"

وبدأها بقوله: بك الله مبدي الخلق طرا توسلي وفي كل أزماتي عليك معولي.

توسل فيه بالنبي – صلى الله عليه وسلم – وأصحابه والتابعين والفقهاء والأولياء [53].

هـ/" شرح على إضاءة الدجنة " لأحمد المقري وعد الفكون بتأليفه لكن لا نعلم إن كان أنجزه أم لا.

و/ تقييد على كرامات الوزان وعد الفكون بتأليفه [54].

ي/ تقييد في مسألة حبس[55].

خاتمة:

لقد عاش الفكون في فترة مفصلية من تاريخ الجزائر خلال العهد العثماني خلال القرنين العاشر والحادي عشر الهجريين الموافقين للقرنين السادس والسابع عشر الميلاديين ورغم أهمية المرحلة إلا أنها تشهد نقصا كبيرا فيما يتعلق بالكتابات التاريخية التي تغطي الفترة، خاصة الجوانب غير سياسية ما يتعلق بالجانب الاجتماعيوالاقتصاديوالثقافي وفي اعتقادي هنا تكمن أهمية مؤلفات الفكون، فهي على قلتها، فإنها تعطينا معلومات هامة ومتنوعة حول مجتمع قسنطينة في مختلف جوانب الحياة المذكورة آنفا. كما نستشف من البحث أيضا حركية الحياة الثقافية خلال هده الفترة من خلال عملية التعليم والتعلم وما صاحبها من ابداع فكري وما الفكون إلا نموذج للعديد من علماء الجزائر الدي عاشوا خلال هده الفترة.

الهوامش:

[1]-الفكون: منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية 52.

2-نفسه صص، 49، 68.

3-أبي سالم العياشي: الرحلةالعياشية المعروفة بماء الموائد، تحقيق محمد حجي، الرباط، 1977، ط2، صص، 390-391.وقد ترجم له كل من محمد بن الطيب القادري، نشر المثاني، ج2، ص ص، 130-131.وشجرة النور الزكية في طبقات المالكية لمخلوف، ج2، ص 266.والأعلام للزركلي، ج4، ص180، ونفح الطيب للمقري، ج2، ص 480، وتعريف الخلف برجال السلف للحفناوي، ص 164.ومعجم مشاهير المغاربة لأبي عمران الشيخ وناصر الدين سعيدوني، ص 425. وعادل نويهض في معجم أعلام الجزائر ص254.وسليمان الصيد في نفح الأخبار عما في قسنطينة من الأخبار.ص21.

4-الفكون: منشور الهداية، ص 208.

5-نفسه ص 48.

6- نفسه ص 48.

7-الفكون، منشور الهداية،ص 35 وما بعدها.

8-قفاف عبد الرحمن: مرجعية الافتاء على نوازل ابن الفكون.ص 95 وما بعدها.

9-الفكون: منشور الهداية، ص 59.

10-نفسه ص 61.

11-الفكون: منشور الهداية، ص 60.

12-نفسه صص 60-61.

13-نفسه صص، 97-98.

14-نفسه ص204.

15 سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي.ج1، ص ص 52- 53.

16-سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص 54.

17-رحلة العياشي، صص 390-391.

18- عبد الرحمن الجيلالي: تاريخ الجزائر العام.ج3، ص 173.

19- سعد الله، مرجع سابق، ج1، ص 523.

20- الفكون: منشور الهداية، ص 113.

21- منشور الهداية، ص 94.

22- نفسه ص 93.

23- نفسه ص ص 205-207.

24- نفسه صص 207-208.

25- الفكون :منشور الهداية.ص ص، 205، 207.

26- نفسه ص 93.

27- نفسه ص 92.

28- نفسه ص95.

29- منشور الهداية، ص ص 219/218.

30- نفسه، ص52.

31- العياشي : الرحلة العياشية، ج2، ص 391.

32- الفكون :فتح الهادي في ش شرح المجرادي.ورقة 67.

33 - الفكون : فتح الهادي في شرح المجرادي، ، ورقة 01.

34- العياشي : الرحلة العياشية، ج2، ص 206 وسليمان الصيد : نفح الأخبار، ص 23.

35- عبد الكريم الفكون : منشور الهداية، ص 14.

36- نفسه ص 15.

37- منشور الهداية، ص 16.

38- أنظر محدد السنان، مخطوط ورقتي 57/ 58.

39-سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، ص 82.

40 - عبد القادر الر اشدي:تحفة الإخوان في تحريم الدخان، ص58.

41- ينظر ترجمته في خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر للمحبي.ج3، صص 157-158.

42- عبد القادر الراشدي:تحفة الإخوان في تحريم الدخان .ص 57.

43- عبد الكريم الفكون: محدد السنان، ورقتي 37-39.

44- رحلة العياشي، ج2، ص396.

45- الفكون: محدد السنان ورقة 7.

46- محمد الفكون :نوازل الفكون.ورقة585و 586.

47- ذكر الشيخ الإسلام بن تيمية في كتابه قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة : إذ قال القائل : اسأل الله بحق فلان أو بجاهه أي أسألك بإيماني ومحبتي له فهذا من أعزم الوسائل. فمن قصد هذا المعنى فهو معنى صحيح فمن قال أسألك بإيماني بك وبرسولك ونحو ذلك أو بإيماني برسولك ومحبتي له ونحو ذلك فقد أحسن في ذلك كما قال تعالى في دعاء المؤمنين : " ربنا إننا سمعنا مناديا للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنّا ربّنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفّنا مع الأبرار " آل عمران 193 وقوله تعالى :" الذين يقولون ربّنا إنّنا آمنا فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار " آل عمران 16 وقوله تعالى :" إنّه كان فريق من عبادي يقولون ربّنا آمنّا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين" المؤمنين 109. أما التوسّل بذات النبي صلى الله عليه وسلم بعد موته، أوغيره من الأنبياء فليس هذا مشهور بين الصحابة

والتابعين، بل إن عمر وغيرهُ من الصّحابة لما أجدبوا توسّلوا بالعباس عم النبي – ص – وليس به، أما ما يرويه البعض عن الرسول – ص – أنه قال :" إذا سألتم الله فاسألوه بجاهي فإن جاهي عند الله عظيم " فهو موضوع ص ص 197، 198.

48 العياشي : الرحلة العياشية، ح2، ص391 كان ابتداء المرض بالفكون بداية من سنة 1025هـ/1616م كما عبر هو عن ذلك .

49سليمان الصيد : نفح الأخبار، وقد ذكر المؤلف أن نسخة من الديوان موجودة في المكتبة الأحمدية التي ضمت إلى المكتبة الوطنية تونس ص 24.

50- منشور الهداية، ص 72.

51- نفسه ص 78.

52الفكون: منشور الهداية، ص205.

53 نفسه، ص 206.

54 نفسه، ص 37.

55- نفسه ص 67.

مصادر البحث ومراجعه:

أ – مخطوطات

1-- محمد الفكون :نوازل الفكون.نسخة مصورة عن الأصل.

2-عبد الكريم الفكون: محدد السنان في نحور إخوانالدخان.نسخة عن الأصل.

3- عبد الكريم الفكون:فتح الهادي في شرح المجرادي. نسخة عن الأصل.

ب- المصادر والمراجع المطبوعة:

1-ابن تيمية:قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة.تحقيق عبد القادر الأرناؤوط، إدارة البحوث العلمية، الرياض، السعودية، 2002، ط2.

2- عبد القادر الراشدي:تحفة الإخوان في تحريم الدخان، تحقيق عبد الله حمادي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1997م، ط1

3-- خير الدين الزركلي:الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، 1989م، ط2.

4- أبو القاسم الحفناوي:تعريف الخلف برجال السلف.مؤسسة الرسالة لبنان، 1985م، ط2.

5- أبو سالم العياشي:الرحلةالعياشية، ماء الموائد، الرباط، 1977م

6 - عبد الكريم الفكون:منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية.تحقيق أبو القاسم سعد الله، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان

7- محمد القادري:نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني، تحقيق محمد حجي، أحمدالتوفيق، مكتبة الطالب، الرباط، 1982.

8 قفاف

8-محمد مخلوف:شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، دار الكتاب العربي، بيروت، 1394هـ:ط1

9- المحبي:خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر.مكتبةنباط، بيروت، لبنان، دون تاريخ، ج3.

10- أحمد المقري:نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب.تحقيق محي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة، مصر، 1949، ط1، ج3.

11- أبو عمران الشيخ وناصر الدين سعيدوني:معجم مشاهير المغاربة.منشورات جامعة الجزائر، 1966.

12- عبد الرحمن الجيلالي:تاريخ الجزائر العام.ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1974م، ط7، ج3.

13- سعد الله أبو القاسم:تاريخ الجزائر الثقافي.دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1998م، ط1، ج1، 2.

14- سليمان الصيد:نفح الأخبار عما في مدينة قسنطينة من الأخبار، 1994م، دون معلومات حول الطبع.

15- عادل نويهض:معجم أعلام الجزائر.مؤسسةنويهض الثقافية، بيروت، لبنان، 1980م، ط2.

16- عبد الرحمن قفاف : مرجعية الإفتاء على نوازل ابن الفكون من خلال مخطوط النوازل بين القرنين 10-11 الهجريين، دراسة وتعليق. رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير، قسم التاريخ جامعة الجزائر، 2005-2006م